بين الرافعي والعقاد

القديم والجديد

نقد وتحليل

للأستاذ محمد أحمد الغمراوي

— ١ —

لعل من أسوأ سيئات عصور الانتقال ظاهرة التمرد التي تغلب على الناشئين فيها ، فقد كان الناس قبل أن يبتلوا بعصر الانتقال هذا يرجعون فيما يختلفون فيه إلى أصول مقررة تستند إلى ما يسلمون به جميعاً من دين ، أو عرف مستمد من دين ، أو إلى أدب عريق تحددت أحكامه وتبينت معاييره ورسخت أصوله على طوال القرون . فلم يكن صغير يخرج على كبير في تحديد ما ينبغي، ولم يكن ناشئ يتطاول على أستاذ فيما يعلم أنه ناشئ فيه وأنه حديث العهد به . فكان الصغير إذا خالف في سلوكه رأى الكبير يخالف وهو يعرف أنه مخطئ ، ولم يكن ناشئ مبتدئ في الأدب أو غير مبتدئ يخطر بباله — إذا لم يقتنع برأي أستاذه أو من هو في منزلة أستاذه في اللغة أو في الأدب أو في الدين في مسألة بدا له فيها رأي خاص — أن يعيب أستاذه أو يثلبه أو يصغره أو يحاول أن يعرضه لسخرية الناس . وكان الكبار إذا اختلفوا يتحاكمون إلى ما أجمعوا على التسليم به من الأحكام والأصول . فلم يكن الخلاف في المقاييس ولكن في طريقة القياس ؛ لم يكن في القواعد ولكن في التطبيق . فكانوا سرعان ما ينتهي خلافهم إلى اتفاق إن كانوا ممن يبتغون الحق للحق لا للشهوة ، أما الذين تأخذهم العزة بالإثم فلا ينزلون على حكم الحق وإن وضح فأولئك في كل عصر هم مصدر الشقاق والفراق ، سواء أكان العصر عصر استقرار في المعايير أم كان فيها عصر اضطراب يشبه الفوضى كعصرنا الذي نعيش فيه

كان الأمر كذلك وكان الناس في راحة من أجل ذلك . كان يكفي أن يحتج أحد المتناظرين لرأيه بآية كريمة أو حديث شريف أو رواية في اللغة ثابتة تشهد لأحد الرأيين حتى ينزل صاحب الرأي الآخر على رأي الأول من غير أن يجد في نفسه غضاضة ، لأنه في قرارة نفسه يعرف أنه نزل على حكم الآية أو الحديث أو الرواية الصادقة ، وهذه عنده أحكام يجب أن تطاع وأصول يجب أن تتبع ، والغضاضة كانت عنده والهوان في مخالفة تلك الأحكام والأصول بعد أن وضح له وجه الحق منها ، لا في مخالفتها نزولا على حكم الهوى والشهوة . وكان الأمر في ذلك كله مداره الدين وعلم المرء أن الله سائله عن الحق لم لم يتبعه وقد وقر في نفسه ، وعن الباطل كيف اتبعه ولبس به الحق ورغم ضميره ورغم قلبه . فكان هذا الوازع الداخلي حاملاً على الحق صارفاً عن الباطل حتى ضعف في الناس على الأخص بفشو هذا التجديد الذي يستمد كل قوته من جلال الغالب في نفس المغلوب

ومسألة القديم والجديد عمرها لا يكاد يزيد على ثلاثين عاما أثارها في الناس نفر تثقفوا ثقافة غربية من غير أن يكون لأكثرهم من الثقافة الاسلامية نصيب مذكور . والغرب والشرق على طرفي نقيض لا يلتقيان كما يقول رديارد كيلنج ، وإن كان من الممكن أن يلتقيا في العلم الذي هو مفخرة الغرب والذي هو جزء من الاسلام الذي يدين به الشرق . لكن الذين أثاروا مسألة القديم والجديد لم يكونوا يعرفون، ولعل أنصارهم لا يزالون يجهلون أن العلم الذي ظهر به الغرب هو في الاسلام جزء من الدين ، وأن المدنية الغربية ليس فيها ما يستحق أن يطلب ويؤخذ إلا ذلك العلم الطبيعي الذي اهتدى إليه الغرب بالعقل والتجربة ، والذي يمثل فطرة الله التي فطر عليها الأشياء . أما فطرة الله التي فطر عليها الناس فتلك يمثلها الاسلام عن يقين . فكأن الغرب والشرق قد اقتسما علم الفطرة: علمها الغرب في الماديات بالعلم والتجربة ، وعلمها الشرق في الروحانيات والاجتماعيات بالدين والوحي . فكان الشرق مخطئا حين لا يأخذ بعلم الغرب ، وكان الغرب ضالا حين يخالف الاسلام كما أنزله فاطر الفطرة على محمد عليه الصلاة والسلام . وكان سبيل الكمال لهما معا وللانسانية أن يجتمعا على العلم والدين ، علم الغرب الطبيعي ودين الشرق الاسلامي ، فيجتمع لهما بذلك علم الفطرة ونظامها في المادة والروح . وكان هذا أيضا هو سبيل التجديد الصحيح لمن يريد أن يكون مجددا مصلحا ، يجدد للشرق شبابه ويجدده من غير أن يعرضه لشر ما يهدد الغرب من أخطار . وهذا هو السبيل الذي دعا إليه جمال الدين الأفغاني وسار على آثره

فيه محمد عبده . لكن دعاة التجديد الذين جاءوا بعدهما من لم يكن لهم مثل علمهما ولا بصرهما بالاسلام ضلوا سبيل الدعوة وصدّقوا الغرب فى ظنه الذى ظن بالاسلام من أنه كان سبب تأخر الشرق. ولما لم يطيقوا أن يهاجموا الاسلام مواجهة فيدعوا الناس صراحة إلى نبذه ، عمدوا إلى مهاجمته مداورة بدعوة الناس إلى قبول كل ما عليه الغرب إن كانوا يريدون أن يكون لهم ما للغربيين من قوة وحياة . وزعموا للناس أن المدنية الغربية كل لا يتجزأ ، فإما أن تؤخذ كلها أو تترك كلها ، إما أن تؤخذ باجتماعياتها وأدبياتها وعلمياتها وإما ألا يؤخذ منها شيء . فوقع الناس بهم فى مصيبة طامة وفتنة عامة لأن الناس يلمسون قوة الغرب ويريدون أن يكون لهم مثل قوته لينجوا مما هم فيه من رقه واستعباده . فإن كان حقا ما يزعمه لهم دعاة التجديد الغربى من أن لا سبيل إلى ذلك إلا بأخذ المدنية الغربية بحذافيرها فليس لهم فيما يبدو مفر من ذلك ولو كان فى ذلك خروج على الاسلام . ونجحت حركة الالتفات التى قام بها دعاة الغرب ضد سلطان الاسلام فى نفوس من أصغى إليهم من الناس حين ألجأوهم إلى أن يميزوا أنفسهم ذلك التميز بين الاسلام وبين القوة والحياة ، من غير أن يتعرض أولئك الدعاة فى سبيل ذلك للخطر الذى كانوا يتعرضون له من غير شك لو أنهم دعوا الناس مباشرة إلى نبذ الاسلام . وأصبح الذين أصابتهم فتنة ذلك التجديد كمن أحاط به العدو لابد له من الموت أو التسليم ، أو كمن وجد نفسه مضطرا إلى الاختيار بين قتل ولده وبين الحياة . ولقد كان سهلا على من وقف هذا الموقف من الناس أن ينفك عن نفسه ذلك الحصار ويخرج من ذلك الاضطرار الوهمى لو أنه كان يعرف حقيقة دينه وتاريخه حتى صدر الخلافة الراشدة على الأقل ، لكن أولياء أمور المسلمين عفا الله عنهم وتداركهم بهدايته وتسديده كانوا ولا يزالون يعملون تعريف المسلمين بدينهم ، وتنشىء أبنائهم وبناتهم فى الروح الاسلامى بالتربية الاسلامية . ومن هنا كان المسلمون عونا لعدوهم على أنفسهم . ومن هنا كان كل ما أصاب أولئك « المجددون » من نجاح ، وما يهدد الاسلام فى بلاده وفى نفوس أهله من خطر . ومن هنا أيضا هب لدرء هذا الخطر فريق من المجاهدين المحتسبين الذين آتاهم الله فقها في الدين وقوة فى الجنان وبسطة فى البيان ، وفى طليعة هؤلاء كان الرافعى رحمة الله عليه

فالمسألة بين القديم والجديد كما يسمونها ليست مسألة اختيار بين أدب وأدب وطريقة وطريقة ، ولكنها فى صميمها مسألة اختيار بين دين ودين . فالذين يسمون أنفسهم أنصار التجديد يؤمنون بالغرب كله ويريدون أن يحملوا الناس على دينهم هذا ولو خالف الاسلام فى أكثره . والذين يسميهم هؤلاء أنصار القديم يؤمنون بالاسلام كله وبالقرآن كله ويأبون أن يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض ، أو أن يديتوا للغرب مؤمنين به من دون الله . وكل الخلاف بين أنصار « القديم » وأنصار « الجديد » منشؤه هذا ومرده إلى هذا . هؤلاء مثلا يريدون متابعة الغرب في السفور والاختلاط لينعموا بالحب ! كيفما شاءوا ، وأولئك يرون السفور والاختلاط مفسدة أى مفسدة لأن الله وهو أعلم بخلقه نهى عنهما فى الكتاب . هؤلاء يريدون متابعة الغرب فى ألا يتزوج متزوج إلا واحدة ، وأولئك يرون إباحة تعدد الزوجات لأن الله سبحانه أباحه فى الكتاب . هؤلاء يريدون التسوية بين الذكر والأنثى في كل شيء ظناً منهم أن الغرب يسوى بينهما ، وأولئك يرون غير ذلك فيما لم يسوّ الله بينهما فيه فى الكتاب . هؤلاء يرون الاسلام ديناً عربياً أنزل للعرب ولا يلائم إلا العرب ، وأولئك يعتقدونه دين الانسانية الكامل أنزل للناس كافة بما يضمن صلاح الناس كافة غير مقيد بزمان ولا متخصص بمكان كما نص الله عليه فى القرآن وكما يتجدد عليه فى كل عصر البرهان

ثم أنصار « الجديد » يضيقون ذرعاً بالقيود الأخلاقية التى قيد الدين بها الناس فيما يعملون وفيما يقولون ، ويريدون أن يتحللوا منها فيزعموا للناس أن هذه الأخلاق وقيودها إن هى إلا عرف وتقاليد ، وإن التقيد بالعرف والتقاليد فى الفن والأدب يعوق الفن ويحول دون ترقى الأدب ، فيجب إذن إطلاق الفن وتحرير الأدب من تلك القيود . ومن هنا نشأ خلاف آخر بين الفريقين نقل المراك بينهما من ميدان الاجتماع إلى ميدان الأدب . فأنصار الجديد يدعون إلى الفن العارى والأدب المكشوف ويدّعون للفنان والأديب حرية في القول والفعل لم يأذن الله فيها لانسان ، وأنصار قديم الاسلام يدفعونهم عن هذا ويحدون حرية الفنان والأديب بما حد الله به حرية كل

إنسان من قيود الدين والأخلاق وإلا عمت البلية بالأدب وصار شراً ووبالاً على الناس . واتسع الخلاف وتشعب بين الفريقين . بعض أنصار الجديد الغربي في توهين السد الاسلامي الذي يجدونه قائماً في وجوههم أينما تلفتوا فيزعمون للناس من طرف خفي أن القرآن من صنع عبقري لا من صنيع الله ، وأنه آية فنية لكنه آية فنية إنسانية لا معجزة إلهية ، وإذن فينبغي أن يخضع لما يخضع له كل عمل إنساني من النقد والفحص والبحث العلمي فيما يزعمون، ويهب لدرء هذا الافك العظيم كل كريم نجد من رجال الأدب أو غير رجال الأدب من المسلمين ، يقاتلونهم على إعجاز القرآن وحرمته وتقديسه ، ويدعونهم إلى خطة إنصاف ليس من إنصاف بعده : إما أن يتركوا القرآن وشأنه لا يتعرضون له بشيء إن كانوا لا يؤمنون به ، وإما أن يذكروه ويدرسوه إذا قدروا على دراسته ، ولكن بنفس روح الاحترام والاحتياط والاجلال الذي يدرس به العلماء الشمس والنجم والبحر وما إليها من الظواهر الكونية الثابتة التي لايد في خلقها للانسان . وهي كما ترى كلمة سواء غاية في الانصاف ، لو كان لدى أنصار الجديد الروح الذي يقضي بقبولها لما كانت هناك تلك المرارة في القتال التي جلبها عدم قبولهم شطر الكلمة الأول ، ولاصطلح الفريقان ومحابا واجتمعا على التجديد الحق في الأدب وغير الأدب لو أن أولئك قبلوا شطر الكلمة الثاني . وإذن لما كان هناك أنصار جديد وأنصار قديم ، ولكن فئة واحدة من المجددين المصلحين الذين يعملون بالحق للحق ضمن دائرتي العلم والدين اللتين يشملهما الاسلام جميعاً

إن من أشد ما يؤسف له أن تفترق قوة أولى القوة في الشرق هكذا فرقتين، إحداهما تهدم والأخرى تدفعها عن الهدم، فيشغل الفريقان جميعاً عن التجديد والبناء ، وعدوهما واقف لهما بالمرصاد . لكن التمني لا يجدي والواقع هو الواقع . فستستمر المعركة بين أنصار جديد الغرب وأنصار قديم الاسلام كما شدوا حتى ما تكون حتى يقضي الله بينهما بحكمه . ومهما يكن من ذلك فالموقف بين الفريقين هو في سميمه كما صورنا . وعلى أساسه يمكن النقد في غير كبير عناء أن يضع الأمر بينهما في نصابه فيما كان وفيما يجد من خلاف . وسنضرب فيما نستقبل من الكلمات مثلاً لذلك بتبيين وجه الحق فيما احتدم حول أدب الرافعي رحمه الله من جدال

محمد احمد الغمراوي

بين الرافعي والعقاد

على هامش المعركة

للأستاذ محمد رفيق اللبابيدي

سيدي الأستاذ محرر الرسالة

كتب الأخ الصديق الأستاذ الطنطاوي في معرض التعليق على ما يكتبه الأخ الصديق والزميل الأستاذ سيد قطب . وآثر أن يشتد فيما كتب وأن يسرف في سوء الظن فيما يكتبه الأستاذ قطب

وبيني وبين الأستاذين الطنطاوي وقطب من الصلة ما يسمح لي أن أقول كلمة في الموضوع الذي بسطا القول فيه ، ومن حق كزميل ثاني عرفه حق المعرفة أن أرد على أخي الطنطاوي بوفق قوله : إنه لا يعرفه وإنه الخ ... فلقد سبق أن عرف الأستاذ الطنطاوي الأستاذ سيد قطب وزامله أيضاً حين كنا ثلاثتنا في فصل واحد وفي سنة واحدة من مدرسة دار العلوم العليا ، على أني لست بسبيل تقرير هذه المعرفة فهي ليست بشيء في الموضوع الذي أريد أن أقول كلمتي فيه

* * *

كنت قبل أن يكتب الأخ الطنطاوي أوشك أن أكتب، في موضوع الخلاف بين الأستاذة المريان وشاكر وقطب ، وأنا أعرف رأي الأخ قطب في الرافعي من قبل، وأعرف أنه رأي «غير تقليدي، فلقد كنت في دار العلوم وكانت حلقة الاخوان تضم قطباً وكنا دائماً على طرفي نقيض ، فجماعة منا مع الرافعي وأخرى عليه، وكان على ما أذكر الأخ قطب لسانها ، فليس حقاً أن يتهم الأستاذ قطب في رأيه هذا، فهو رأي عقيدة — وإن كنا نخالفه فيها كل المخالفة — ثم إن الأخ قطباً من إخواننا النابهين المعروفين في البيئة الأدبية، وليس من العدل أن يجهل هذا الجهل ديري بهذا النبز من القول الذي جاء في مقال الأخ الطنطاوي

وإذا كان خطأ مناظرك في الرأي مدعاة للتجهيل والوقوع فيه وفي فضله وفي علمه فلم يبق ثمة مجال للجدل والنقاش